د.مظهر محمد صالح *: المثقف والطبقة الوسطى - العراق الريعي في عقدين.

١- تمهيد

أ-هالني ما كتبه المفكر الفلسطيني الراحل ادورد سعيد في كتابة الموسوم : "المثقف والسلطة" الذي اختصر مفهوم المثقف بكونه: شخص أن يقول الحق للسلطة و (استجوابها) وهو ما ساطلق عليه من طرفي مجازا : بالاستجواب الايديولوجي المضاد Anti ideological interpellation .ففي كتاب إدوارد سعيد تمثيلات المثقف :فيطالب المثقف كشخص أن يقول الحق للسلطة واستجوابها، وكفرد غاضب لا يعرف أية قوة دنيوية تكون مهيبة وتخلو من النقد على تصرفات السلطة، وعلى المثقف أن ينتقد السلطة مهما كانت، لأنه هو المحور الأساسي لأعمال المجتمع المعاصر وبدونه لم تقم أي ثورة في التاريخ الحديث، والواقع فان الحكومات مازالت تضطهد الشعوب، وسوء تطبيق العدالة، واستمالة السلطة للمثقفين واحتواؤهم. ويهاجم سعيد في كتابه بعنف المثقفين الذين تخلوا عن وظيفتهم الحقيقية في مجتمعاتهم، وابتعدوا عن مبادئ الحق والعدالة، وتجردوا من سلطتهم الأخلاقية لصالح حكوماتهم الطاغية.

والنقطة الحاسمة هنا هي فكرة الاستجواب interpellation التي يلتقي فيها ادورد سعيد مع المفكر الفرنسي الماركسي لويس اولتسير (Louis Althusser) لتشكيل جدلية المثقف ورسم ادواره في احلال فكرة ((الاستجواب الايديولوجي المضاد Anti ideological interpellation)) للمفكر ادورد سعيد بكتابه انفا كما يحلو لي فهمه في تعريف المثقف .

اذ سبق ان عرف لويس التوسير السلطة السياسية تحت يافطة الاستجواب interpellation (بجهازين) مسيطرين لفرض الانضباط. فالجهاز الاول والذي اطلق عليه التوسير (بالجهاز القمعي)وكان يقصد به قوة نفاذ القانون من الشرطة والمحاكم والسجون والمؤسسات الحكومية المعنية بفرض النظام وحماية الحقوق وتنظيم الواجبات واستخدام العنف المنظم لحماية الدولة . اما الجهاز الثاني، فيطلق علية (بالجهاز الايديولوجي) ويتألف من الاسرة والمدرسة والمعابد ومنظمات المجتمع المدني وغيرها. ويتولى الجهاز الايديولوجي مهمة تداول الأطروحة الأولى في الجدال الماركسي المألوف ومفاده ان الأيديولوجيات لها وظيفة إخفاء الترتيبات الاستغلالية التي تقوم عليها المجتمعات الطبقية. حيث تختلف نظرية ألتوسير عن مفهوم الأيديولوجيا الذي اعتنقه الماركسيون السابقون، فهي ترى

الأيديولوجيا على أنها وسيط دائم للخداع يجب أن يوجد لربط الناس معًا في المجتمع. فحتى في المجتمع اللا طبقي ، هناك حاجة للأيديولوجيا لإعطاء نوع من التماسك الاجتماعي ، لإعادة تشكيل الأفراد كذوات خيالية كما يرى التوسير.

فيما تفترض الأطروحة الثانية أن الأيديولوجيا لا توجد في شكل "أفكار" أو "تمثيلات" واعية في "عقول" الأفراد. بدلاً من ذلك ، تتكون الأيديولوجيا من تصرفات وسلوكيات الهيئات التي تحكمها تصرفاتها داخل الأجهزة المادية. فمن الأمور المركزية في نظر الأفراد هي فكرة وجود صلة تفسيرية بين (المعتقد والفعل) .فكل "شخص " يتمتع بـ "وعي" ويؤمن بـ "الأفكار" التي يلهمها "وعيه" ويقبلها بحرية ، يجب أن يتصرف وفقًا لأفكاره ، ومن ثم يجب أن يكتب أفكاره كموضوع حر في تصرفات ممارسته المادية.

ب- وهكذا في النظرية الماركسية الاوروبية الحديثة، يعد الاستجواب مفهومًا أساسيًا فيما يتعلق بمفهوم الإيديولوجية ويرتبط بشكل خاص بعمل الفيلسوف الفرنسي لويس التوسير كما ذكرنا آنفاً، الذي يناقش أهمية الطبقة الوسطى middle class في النسيج الاجتماعي. ومن هنا تدرك الدولة (القمعية) حسب التوسير هذه الأهمية للطبقة الوسطى وتستخدم أجهزتها الأيديولوجية لتجريد الطبقة المذكورة من الفكر. . فحتى الدولة الهشة او اللينة تكرس المتعلمين (أو رجال الكنيسة) لنشر أفكار محددة تخنق الطبقة الوسطى وتجعلها موالية. ويعتقد ألتوسير أن المتعلمين حقًا هم فقط القادرون على دفع الطبقة الوسطى إلى الأمام من خلال أنماط التفكير الإيجابية المختلفة التي يمكن أن تحررهم من جهاز الدولة القمعي. لذلك فهو ليس فقط عنف دكتاتوري بطبيعته، ولكن الدولة الهشة او اللينة يمكنها التحكم في التأثير الفكري حول الطبقة الوسطى. اذ يمكن للكنيسة أو دار العبادة نشر أفكار الدولة القمعية عن غير قصد، ويسميها ألتوسير هنا "بالاستجواب" وهي الطريقة التي يواجه بها الناس أيديولوجية ما يستوعبونها دون وعي.ومن ثم يصبح المتعلم سيف ذو حدين. فإما أن يعمل على فضح ومحاربة أيديولوجية الدولة الفاسدة وتثقيف الطبقة الوسطى، أو يتحول الشخص المتعلم اداة لنشر الفساد ويزيده سوءًا. فعادة ما يمر الفساد دون أن يلاحظه أحد عند التنكر في صوره الأيديولوجية؛ بل إنهم يرتدونه كالملبس .

٢- المثقف والطبقة الوسطى (العراق في عقدين).

بحسب معطيات المفكر الماركسي الايطالي (أنطونيو غرامشي) وفي (نظرة بين المفكر والمثقف)، يجد إن جميع الناس مفكّرون ولكن وظيفة المثقف أو المفكر في المجتمع لا يقوم بها كل الناس. ويقسم وظيفة المفكر أو المثقف إلى قسمين: الأول يضم المثقفين التقليديين مثل المعلمين والكهنة. والثاني يضم المثقفين المنسِّقين المرتبطين مباشرة بالطبقات أو المشروعات التي تستخدم المثقفين في تنظيم مصالحها.

وفي ضوء ما تقدم، فقد ارتبط المثقف سواء العضوي او التقليدي حسب (غرامشي) بالطبقة الوسطى في بلادنا عموما ذلك منذ نشأة الدولة العراقية الحديثة وانتهت الثقافة والطبقة الوسطى وتحولت في نظام الحزب الدكتاتوري الواحد الى شلة هامشية فارغة المضمون تدافع عن عيشها بعد ان جرى تهميشها ومن ثم افقارها، لتجد نفسها امام نمط أيديولوجي خالي المحتوى كي تتشكل من خلاله هيمنة ثقافية فارغة المضمون Empty cultural hegemony وبلون واحد.

فبعد عشرين عاما مضت تبلورت بالغالب طبقة وسطى ريعية شديدة الانتهازية للأسف تفتقر للمشروع الوطني الذي تتجانس فيه تلك الطبقة عادة وتحولت الى نسيج يفتقر للانسجام ويختبئ تحت ظلال الطائفة او المنطقة او العرق او اللون لا مشروع ثقافي لها .

كنت اطالع قبل ايام عمود لاحد الكتاب العراقيين المرموقين عن موضوع (مراكز القوى) التي تستقوي على الدولة في بلادنا والتي تجدها تتمدد حقا بين الزعامات القبلية والدينية والمناطقية والاحزاب وزعاماتها والعائلات (وعصابات النفوذ المالي) ومحتكري القرار او اوجه من السلطة للبعض من البيروقراطيين واصحاب النفوذ الخارجي واللاعبين الدوليين والاقليميين وغيرهم من هم بين هذا وذاك !!! وهي مصفوفة رياضية صعبة غير قابلة للحل .يختبئ في طرازاتها الباهتة شتات الطبقة الوسطى الريعية الناشئة التي استبدلت بالغالب المشروع الوطني كقوة مثقفة بالمشروع الطائفي او العرقي او الايديولوجي الضيق لاسباب تقاسم الريع .

يرى المفكر الاقتصادي الكبير بارق شبّر منوها حول المثقف ونشوء الطبقة الوسطى في العراق الحديث منذ تأسيس الدولة قبل مئة عام قائلاً في احد منصات الحوار المهني: الاشكالية الكبيرة في الطبقة الوسطى العراقية انها نشأت في ظل النظام الملكي ذلك بفضل إدخال النظام التعليمي الحديث وكانت مهمشه اقتصاديا وسياسيا مما جعلها تتمرد على النظام الملكي وارتباطه ببريطانيا العظمى. هذه الطبقة تبنت ايدولوجيات متناقضة ومتناحرة بين المشروع الوطني والمشروع العربي القومي وكان يجمعها قضية التحرر الوطني، الا فبعد تحقيق هذا الهدف في العام ١٩٥٨ انقسمت على نفسها وتحاربت بقسوة شديده ابتدأ من الانشقاق في تنظيم الضباط الاحرار وانتقلت العدوى إلى الكثير من الأسر المدنية والى الشارع. وهذه الانقسامات تمت داخل الطبقة الوسطى وبين النخب المثقفة ولا تزال قائمة مع دخول عناصر ايديولوجية جديدة عليها مثل الإسلام السياسي. اذ تراجعت طبقة المثقفين ودخلت طبقة المتعلمين من حملة الشهادات الجامعية. وفق تجاربي الواسعة مع هذه الطبقة كما يقول الاستاذ بارق شبر، بات بنحو ٨٠٪ منهم يؤمنون بالغيبيات رغم دراستهم الجامعية العلمية وعاجزين عن ممارسة دورهم الريادي في نقد السلطة وفي تحقيق الإصلاحات المجتمعية والاقتصادية بسبب اعتمادهم الكلي على توزيع الريع النفطي فضلا عن سلوكهم الاقتصادي اللاعقلاني وفق سردية "اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب" .

٣-في عمود اسبوعي مهم تنشره جريدة الصباح اليومية العراقية ، قدم المفكر السياسي الكبير ابراهيم العبادي استفهاماً جوهرياً واستطرادا واسعاً عنوانه : **عشرون عاما بعد التغيير /حان دور الثقافة والمثقفين...!!.**

اذ يرى المفكر العبادي ان :

ابرز ما سجلته المرحلة الانتقالية التي اعقبت سقوط نظام صدام عام 2003 هو انحسار دور المثقف وغياب الحيوية عن الحقل الثقافي العراقي لصالح دور الزعيم السياسي والناطقين باسم الطوائف والمدافعين عن الجماعات ومصالحها وحقوقها .

قد لا يشكل هذا التراجع لدور المثقف امرا استثنائيا في مثل ظروف العراق العاصفة وتبدلات احواله في ظل جمهورية الخوف وقسوتها وصمتها ثم الانتقال الشرس من الاستبداد والشمولية الى الحقبة الحالية، غير الطبيعي هو استمرار تراجع دور المثقف وخفوت صوت الثقافة في النسق الاجتماعي والسياسي وفي المجال العام، بسبب صعود الادلجة السياسية وتغلب منطق المتاجرة في الدين والطائفة والايديولوجيا واندفاع الكثيرين الى الاستثمار في هذا الحقل، دونما تكوين ثقافي ومعرفي رصين أو وعي بصير بالمآلات الاجتماعية والقيمية .

ويرى المفكر العبادي ان الحياة السياسية العراقية لم تخل من ادوار لمثقفين منذ تأسيس الدولة الحديثة ، كان اكثرهم متاريس في جبهة الاحزاب والمشاريع الايديولوجية ذات الاهداف السياسية السلطوية ، مثقف السلطة كما مثقف الجبهة المضادة المعارضة ،لا يستطيعان الافلات من اسر الايديولوجيات واطواق الفكر المعلب ،لكن هذا الدور يفقد مشروعيته كلما تبادل الساعون الى السلطة المواقع والخطابات الهجائية ،وصار الدور ارتزاقا يدور على هامش الافكار ويقتات على خطوط الخصومة والرفض المتبادل .

في حمأة الصراعات السياسية والاستقطاب الطائفي والقومي ،يعمل زعماء الطوائف وقادة القوى السياسية المسلحة الى تسخين خطابات الهوية الفرعية وتصعيد اجواء التعبئة ،في تلك المناخات المضطربة يتوارى الفكر والمفكرون والثقافة والمثقفون ،وتحضر رجالات السلاح وحراس الامن والمدافعون عن حريم الجماعات ،حينها لا صوت يعلو على صوت مواجهة الخصوم وكسر المناوئين وتسفيه خطاباتهم المتحيزة ،اما مواجهة الحقائق وفضح الخطاب الموارب وكشف المستور من ممارسات وسياسات تنتهك عالم المثل والاخلاقيات والمعايير الانسانية وتبشر ببدائل معقولة فهي مدار عمل رهط من المثقفين ونقاد الفكر والسياسة استطاعوا التحرر من الايديولوجيات

لكن الى اي حد يستطيع المثقف ان يمارس دور مكانة النقد وكشف الاوهام والتزييف؟ وكم هي مساحة الدائرة التي يستطيع الحراك فيها بموضوعية ومعقولية ويمارس انسانيته وحريته؟

اظن ان جواب السؤال يقتضي معاينة قدرة المثقف على موازنة الفاعلية الثقافية والنقدية والكشفية وبين محددات البيئة الاجتماعية والدينية والسياسية. ويواصل المفكر ابراهيم العبادي بالقول :

سأستخدم مقولة هربرت ماركوز (Herbert Marcuse) وهو احد الفلاسفة الاجتماعيين ومن رموز مدرسة فرانكفورت لتحديد دور المثقف ،يقول ماركوز : على المثقف كي يكون كما يجب ان يكون ، ان يواجه المجتمع المسيطر ببديل اجتماعي متحرر من السيطرة ،يتيح للإنسان مهما كان لونه ووضعه ومعتقده ، حياة مبرأة من القمع والحرمان ،ان دور المثقف الملتزم يكمن في توزيع الحقيقة على البشر كي يبصروا ما يجب التخلي عنه وما يجب الاخذ به .

ان الجهر بالحقيقة مهمة المثقف الاساسية -بتعبير سارتر، ومالم يستعيد المثقف دوره ويخلع عنه اردية التعصب الحزبي والطائفي والقومي والجهوية ويكف عن الترويج لمشاريع الوهم، فلن يتمكن من اداء الدور المناط به ، دور الانتلجنسيا المهمومة بحرية وكرامة الانسان وحكم القانون وبناء النموذج الذي يضمن دولة الرفاه والمجتمع المفتوح والخيارات العقلانية .

ومضى على التغيير عقدان حفلا باحتدام والتباس شديدين وتيه مجتمعي واعتلال علاقة الدولة بالمجتمع ،والمجتمع بالقانون ،والحريات بالقيم الاجتماعية ،والسيادة بالكرامة الوطنية ،والتقدم والتنمية بالمساواة المجتمعية ،مضغ العراقيون كلاما كثيرا عن الهويات وحقوق الجماعات وآليات السيطرة والتحكم ،والان تلوح فرصة للتفكير الهاديء والعقلاني لمواجهة ما تراكم في سنوات الصراع بمفاهيمها الملتبسة للانتقال الى الحقل الاساسي ،حقل بناء الدولة واصلاح السياسات العامة و تصحيح علاقة المواطن بالدولة ،فلن تقوى الدولة بدون مواطن فعال ،ومجتمع مؤمن بالحقوق الاساسية ومدافع عنها ،حقوق الافراد كما حقوق الفئات ، تحت سقف الدولة والنظام والقانون والسيادة الوطنية .

ثمة فرصة لإعادة الحوار الثقافي السلمي بهدوء عن الوطنية الحقة والمواطنة الملتزمة والتدين الرحماني والسلطة التمثيلية والدستورية التعاقدية ،لتجاوز اشكاليات الفصام النكد بين الدولة والمجتمع والانتهاء من السلوك السلطوي والتعسف والتلبيس المتعمد والوعي الزائف والفساد المحمي بالإرادات السياسية ،عانى العراق من سنوات تيه متطاولة رغم تاريخه الحضاري التعددي وثرائه الفكري ، وينتظر من مثقفيه ومفكريه اعادة مسار الحوار المجتمعي الى ما يؤمن الاستقرار والسلم الاهلي والتنمية الشاملة والتغيير الاجتماعي بلا شروط. ان الانتقال من سياسات الهوية وسلطة الايديولوجيا الى سياسات التنمية والتغيير هو عمل كبير يحتاج الى خطابات تفكيكية ورؤية ترسم

خطوات الانتقال ،وهنا يحضر دور المثقف- قبل السياسي والرجل الحزبي - في اثارة النقاش المجتمعي العام ،وصناعة البدائل ،غير ان العراق يعاني من اشكالية حقيقية اخرى متفرعة من اشكالية دور المثقف ،اذ من هو المثقف فعلا ؟ ما مواصفاته ؟ فهل هو الاديب الشاعر والقاص وكاتب الرواية والنص المسرحي ،ام صانع الافكار وملهم السياسات ومجدد الخطابات ومفكك الالتباسات ؟

٤-في خضم حوار صناعة البدائل للمفكر العبادي طالعنا المثقف والاديب الكبير حسين الذكر بتعليق رقيق وكأنما يحاكي غرامشي من جهة ،ولويس اولتسير في فكرة الاستجواب الاديولوجي وادور سعيد في فكرة الاستجواب الاديولوجي المضاد Anti ideological interpollation من جهة اخرى ، ذلك بأسطر رقيقة عرف فيها المثقف المولود من رحم الوعي بالقول:

((كي ندرك الطريق علينا التفريق بين الانتمائية والعقائدية.... فكل شي فينا منتمي ولا سبيل لبلوغ سدرة الاعتقاد. لا بالوعي والتجرد والاخلاص كمسالك حتمية للخَلاص...فيما حالنا واحوالنا تحول دون ذلك. فاين نحن من السماء في ظل دهماء وابتلاء..)).

ختاماً، فاذا كان المثقف يمتلك مميزة الاقتدار على ممارسة النقد بموضوعية عالية في نطاق الاستجواب الايديولوجي المضاد Anti ideological interpollation للمفكر ادور سعيد فان هذه الميزة قد غابت في اخطبوط عنوانه تجزئة المثقف الناشئ وتقسيمه وتهميشه. فذوبان جذور الطبقة الوسطى في (مصفوفة اللاحل) لمراكز القوة و وقودها الريعي في بلادنا ، فأنها تعني بالتلازم غياب المثقف العضوي والتقليدي ليكن اثرا بعد عين ، كي نعيد البحث عنه مجدداً في مجهر الحياة الذي غابت عدساته هنا وهناك طوال السنوات العشرين الماضية.

(*) باحث وكاتب اقتصادي أكاديمي، المستشار المالي لرئيس الوزراء العراقي.

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين. يسمح بإعادة النشر بشرط الإشارة الى المصدر.
11 نيسان 2023

Iraqi Economists Network – شبكة الاقتصاديين العراقيين